الباب الثالث والعشرون

بلاد اليونان الرومانية

الفصل الأول

أفلوطرخس

بذلت رومة جهدها لكى تكون كريمة فى معاملتها لبلاد اليونان ، ولم تخفق فى هذا الإخفاق كله ؛ فهى لم تضع حاميات من الجند فى ولاية آخية الجديدة ، وكان ما فرضته عليها من الخراج أقل مما كان ينتزعه جباتها من أهلها قبل مجىء الرومان إليها ؛ وتركت رومة دول المدن تحكم نفسها حسب دساتيرها وقوانينها القديمة ، وجعلت الكثير منها : كأثينة ، واسپارطة ، وپلاتية ، ودلفى وغيرها « مدناً حرة » ، تتمتع بحقوقها القديمة كلها عدا حقها فى أن تشن الحرب الخارجية أو حرب الطبقات .

لكن بلاد اليونان كانت تتحرق شوقاً إلى حريتها ، كما أن القواد الرومان ، والمرابين ، ورجال الأعمال الذين حذقوا أساليب شراء غلات البلاد بأبخس الأثمان وبيعها بأغلاها ، هؤلاء كلهم قد استنزفوا خيرات البلاد ؛ ومن أجل هذا انضمت إلى ثورة مثرداتس وعوقبت على انضمامها إليها أشد العقاب ، فحوصرت أثينة حصاراً أهلك فيها الحرث والنسل ، ونهبت كنوز هياكل دلفى ، وإليس ، وإيدورس .

وبعد جيل من ذلك الوقت تقاتل قيصر وبمبى ، ثم انطونيوس وبروتس ،

على أرض اليونان ، وجندوا أهلها فى جيوشهم ، واستولوا على محصولات البلاد وذهبها ، وجبوا فى عامين ضرائب عشرين عاماً ، وتركوا المدائن خاوية على عروشها . وانتعشت آسية اليونانية تحت حكم أغسطس ، ولكن بلاد اليونان نفسها ظلت فقيرة ، ولم يكن سبب فقرها هو الفتح الرومانى بل كان هو الاستبداد الذى خنق أرواح الأهلين فى اسپارطة ، والحرية التى انحطت حتى أصبحت فوضى فى أثينة ، وما جرّه على البلاد عقم الرجال وجدب التربة من وبال . ذلك أن أكثر أبنائها جرأة ومغامرة قد هجروها إلى الأراضى التى كانت أغنى منها وأحدث استقلالا . وأدى قيام دول جديدة فى مصر ، وقرطاجنة ، وروما ، وقيام الصناعة فى بلاد الشرق الهلنستى إلى ترك مواطن الروح اليونانية القديمة خاوية مهجورة . وكانت روما تثقل اليونان بمديحها وتنهب روائع فنها : فقد أخذ منها اسكورس Scaurus ثلاثة آلاف تمثال ليزين بها ملهاه ، وأرسل كلجيولا زوج عشيقته لينقب فى بلاد اليونان عن التماثيل ، ونهب نيرون وحده نصف ما فى دلفى من روائع النحت ؛ ولم يبسم الحظ لأثينة مرة أخرى إلا حين تولى هدريان الملك .

وكانت إپيروس هى التى انصب عليها غضب رومة أول الأمر فى الحروب المقدونية ، وأباحها مجلس الشيوخ إلى الجند ينهبونها ويعيثون فيها فساداً ، وبيع من أهلها خمسة عشر ألفاً فى سوق الرقيق ؛ وبنى أغسطس عاصمة جديدة لإپيروس فى نيقوپوليس ليخلد ببنائها انتصاره فى أكتيوم القريبة منها . وما من شك فى أن الحضارة قد وجدت فيها ملجأ ومعتصما لأن « مدينة النصر » آوت إپكتتس ، واستمعت إلى تعاليمه . وكان حظ مقدونية خيراً من حظ جارتها الوفية ؛ فقد كانت هذه البلاد غنية بالمعادن والخشب ، وزادت حياتها التجارية نشاطا بفضل طريق إجناشيا Egnatia الذى كان يصلها هى وتراقية من أبلونيا ودير هكيوم إلى بيزنطية . وعلى هذا الطريق الرئيسى الذى لا يزال بعضه باقياً حتى الآن

كانت تقوم أهم مدن الولاية : إدسا ، وبلا ، وثسالونيكا . وكانت هذه المدينة الأخيرة التى نعرفها نحن باسم سلانيك والتى كان اليونان يعرفونها باسمها القديم « نصر تساليا » عاصمة الولاية ، ومركز مجالسها ، وإحدى الثغور التجارية الهامة بين بلاد البلقان وآسية . أما تراقية الواقعة فى شرقها فقد اختصت نفسها بالزراعة ، والرعى ، والتعدين ؛ ولكنها كانت تشتمل على مدن كبيرة أهمها سرديكا Serdica (صوفيا Sofia) ، وفلبوپوليس Philippopolis عاصمتها ، وأدريانوپل (أدرنه) ، وپرنثس Perinthus ، وبيزنطية (اسطنبول الحاليـــة) . وهنا على القرن الذهبى ، كان التجار وصائدو السمك يجمعون ثروة طائلة بينما كان اليونان الذين يقطنون من ورائها فى الداخل يتقهقرون أمام البرابرة المعتدين . وكانت الحبوب الواردة من داخل البلاد تجىء إلى أرصفتها ، كما كانت جميع تجارة سكوذيا والبحر الأسود تؤدى المكوس وهى مارة بها ، ويكاد السمك لكثرته أن يقفز فى الشباك وهو يجتاز مضيق البسفور . ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى أدرك قنسطنطين قيمة هذا الموقع العظيم وعرف أنه مفتاح العالم اليونانى — الرومانى القديم .

وتخصصت تساليا الواقعة جنوب مقدونية فى إنتاج القمح وتربية الجياد الجميلة . وقد وصف ديوكريسستم[1] جزيرة عوبية العظيمة التى أطلق عليها هذا الاسم (كما أطلق اسم بوُوشيا على الجزيرة المسماة بهذا الاسم) لما فيها من الماشية الحسنة الشكل ، وصفها بأنها تعود إلى البربرية فى القرن الثانى الميلادى . وقد تجمعت فى هذا الإقليم عدة عوامل كادت تمحو من الوجود سكانها الذين كانوا فى يوم من الأيام شعباً زراعيا مطرد النماء والرخاء . وأهم هذه العوامل هى ما لاقاه الفقراء من عنت لتركز الأرض الزراعية والثروة فى أيدى عدد قليل من الأسر ، وما لاقاه الأغنياء من عنت لثقل الضرائب والفروض الدينية المطردة الزيادة ، وقلة النسل لأنانية الرجال وحبهم الثراء أو لفقرهم المدقع . وكانت نتيجة

هذا كله أن تركت الأرض مراعى للماشية فى داخل أسوار خلقيس وإرتريا نفسهما . ولم تكن بؤوشيا قد فاقت مما حل بها من موت وما فرض عليها من الضرائب الباهظة أيام حروب سلا . ويقول استرابون « إن طيبة ليست إلا قرية صغيرة » ، قد انكمشت حتى لم تعد تشغل أكثر من الموضع الذى لم يكن قبل إلا قلعتها . على أن مائة عام من السلم قد أعادت بعض الرخاء إلى بلاتية ، واحتفظت قيرونية التى كسب فليپ سلا على سهولها إمبراطوريتين عظيمتين ما يكفى من الروعة لاستبقاء أشهر رجل من أبنائها فيها . ويقول عنها هذا الإبن — أفلوطرخس — إنها بلغت من الصغر حداً لا يجب أن تضغر عنه بتركه إياها . وإنا لنجد فى حياته الهادئة وتفكيره السار اللطيف ناحية مشرقة مبهجة من منظر نكد كئيب ، كما نجد فيه هو نفسه رجلا مهذباً من رجال الطبقة الوسطى مستمسكا بفضائل العهد القديم ، ينطوى قلبه على الإخلاص لبلده ، والوفاء لأصدقائه ، والحب لأبنائه .

وقصارى القول أنه ليس فى قصتنا كلها شخصية أظرف من شخصية أفلوطرخس القيرونيائى .

وكان مولده فى تلك البلدة حوالى عام ٤٦ م ووفاته فيها حوالى عام١٢٦ . وكان يطلب العلم فى أثينة حين كان نيرون يوالى انتصاراته فى بلاد اليونان . وما من شك فى أنه كان واسع الثراء لأنه رحل إلى مصر وآسية الصغرى ، وطاف مرتين بإيطاليا . وقد ألقى محاضرات باللغة اليونانية فى رومة ، ويبدو أنه خدم بلده فى بعض الشئون الدبلوماسية . وكان يحب العاصمة العظيمة ، وآداب أشرافها الجدد ، وحياتهم الرقيقة ، ويعجب بقانونها الصارم ، ويقول مع إنيوس إن رومة قامت على دعائم من الأخلاق الطيبة العالية . وبينا هو يفكر فى أمر هؤلاء النبلاء الأحياء والموتى خطر له أن يوازن بين أبطال رومة وأبطال اليونان . ولم يكن يقصد أن يكتب تاريخاً أو سيراً فحسب ، بل كان يعتزم فوق هذا أن يعلم

الناس الفضيلة والبطولة بضرب الأمثلة من التاريخ ؛ وحتى سيره المتماثلة Parallel Lives كانت فى ذهنه دروساً فى الأخلاق ، ولهذا تراه على الدوام معلماً لا يترك فرصة تمر دون أن يستخلص مغزى خلقيا من كل قصة ؛ وما من أحد قد قام بمثل هذا العمل أجمل مما قام به هو . وهو يحذرنا فى سيرة الإسكندر بقوله إنه يهتم بالأخلاق أكثر من اهتمامه بالتاريخ ، ويأمل أنه حين يجمع بين عظماء الرومان وعظماء اليونان ويوازن بينهم يستطيع أن يبعث فى نفوس قرائه دوافع للخلق الطيب وللبطولة . وهو يعترف اعترافاً صريحاً لا يسعنا معه إلا أن نعفو عن زلاته بأنه قد صلح حاله لطول صحبته لأولئك الرجال الممتازين(٣) .

وليس من حقنا أن نتوقع فى كتاباته دقة المؤرخ الحق ونزاهته ؛ فكتابه ملىء بالأغلاط فى أسماء الناس ، والأمكنة ، والتواريخ ؛ وتراه أحياناً (إذا جاز لنا أن نصدر حكما عليه) يخطئ فى فهم الحوادث ، بل إنه ليقصر فى واجبين كبيرين من واجبات كل كاتب سيَر — وهما أن يبين أن أى شىء فى أخلاق المترجم له وأعماله يرجع إلى الوراثة أو البيئة أو الظروف ، وأن يتتبع تطور أخلاقه خلال نموه ، وما يلقى عليه من التبعات وما يقع فيه من أزمات : بل إنا لنخرج من كتاب أفلوطرخس كما نخرج من كتاب هرقليطس بأن خلق الإنسان مقدر له . ومع هذا فما من إنسان قرأ كتاب « السير » ثم أحس بعد قراءته بما فيه من عيوب ، ذلك بأن هذه العيوب تختفى كلها فى روايته الواضحة ، وحوادثه المثيرة ، وقصصه الفاتنة الساحرة ، وتعليقاته الحكيمة ، وأسلوبه الجزل . وليس فى صفحاته البالغ عددها ألفاً وخمسمائة سطر واحد يحس القارىء أنه حشو لا ضرورة له ، بل إن كل جملة من جمله لها شأنها ومعناها . وقد شهد بفضل الكتاب مائة من عظماء الرجال — منهم قواد عسكريون ، ومنهم شعراء وفلاسفة ، فقالت عنه السيدة رولان Roland « إنه مَرْبَع النفوس العظيمة »(٤) . وكتب عنه منتانى يقول :

« إنى لا أستطيع الاستغناء عن أفلوطرخس فهو كتاب صلواتى »[٥] . وقد استمد منه شيكسبير كثيراً من قصصه ، وإن رأيه فى بروتس لمستمد عن طريق أفلوطرخس من أخلاق الأشراف الرومان الأقدمين . وكان نابليون يحمل كتاب « السير » أينما ذهب لا يكاد يفارقه أبداً . ولما قرأ هين Heine هذه التراجم لم يسعه إلا أن يقفز على ظهر جواد ويعدو به إلى فتح فرنسا . وقصارى القول أن بلاد اليونان لم تترك لنا كتاباً أثمن من هذا الكتاب .

وبعد أن شاهد أفلوطرخس عالم البحر الأبيض المتوسط عاد إلى قيرونية ورزق فيها بثلاثة أبناء وبنت واحدة ، وألقى محاضرات ، وألف كتباً ، وسافر إلى أثينة من حين إلى حين ، ولكنه قضى معظم وقته فى مسقط رأسه وعاش فيه عيشة أهله البسيطة . وكان يرى أن من الواجبات المفروضة عليه لبلده أن يجمع بين المنصب الرسمى والحياة العلمية حياة الدرس والتحصيل ، واختاره مواطنوه مفتشاً للمبانى ، ثم كبير حكامها ثم بوئوتاركا Boeotarch أى عضواً فى المجلس الوطنى . وكان يرأس المواكب والاحتفالات البلدية ، وأصبح فى أوقات فراغه كاهناً فى مهبط الوحى فى دلفى ، وكان هذا المنصب قد عاد إلى الوجود . وكان يرى أنه ليس من الحكمة أن يرفض الدين القديم لما فيه من عقائد لا يقبلها العقل ، لأن أهم الأشياء فى رأيه ليست هى العقيدة ، بل هو التأييـــد الذى تستمده منها أخلاق الإنسان الضعيفة ، وما توجده أعضاء الأسرة الأموات بين الأجيال المتعاقبة فى الأسرة والدولة من روابط تبعث فيهما المزيد من القوة ، وكان يعتقد أن نشوة العاطفة الدينية هى أعمق تجارب الحياة . ولقد كان بفضل تسامحه الدينى وتقواه مجتمعين أن يضع أسس دراسة الدين المقارن فى رسالته التى كتبها عن العبادات الرومانية والمصرية[٦] . ومما قاله فى هذه الرسالة أن الأرباب كلها مظاهر لكائن واحد أعلى ، لا يحده زمان ، يجل عن كل وصف ، بعيد عن الشئون الدنيوية والزمنية بُعداً يترك للأرواح الوسطى Daimones أن تخلق العالم

وتنظم شئونه . وكان يقول أيضاً بوجود أرواح خبيثة ، يسيطر عليها . برأسها شيطان هو مصدر الفوضى جميعها وروحها ، وأصل كل الخبائث وجميع ما لا ينطبق على العقل فى الطبيعة وفى بنى الإنسان .

ويرى أفلوطرخس أن من الخير أن يؤمن الإنسان بخلود الأشخاص — بجنة ينعم فيها الأخيار ، ومطهر ، وجحيم يعذب فيه الأشرار . وكان من أسباب سلواه أن الإقامة فى المطهر قد تطهر أى إنسان مهما خبث حتى نيرون نفسه ، وأنه قلما يوجد فى الناس من يعذبون عذاباً سرمدياً(٧) . وكان يندد بالخرافات ويرى أن أهوالها شر من الكفر نفسه ، ولكنه كان يقبل العرافة والنبوءات واستحضار الأرواح ويؤمن بأن الأحلام تنبئ عن المستقبل ؛ ولم يكن يدعى أنه فيلسوف مبتدع ، بل كان يقول عن نفسه ، كما يقول أپوليوس وكثيرون غيره من فلاسفة ذلك العصر عن أنفسهم ، إنه يأخذ آراءه عن أفلاطون ويوفق بينها وبين زمانه . وكان يعيب على الأبيقوريين أنهم يستبدلون هول الفناء بالخوف من الجحيم ، وينتقد عيوب الرواقية ، ولكنه يرى ما يراه الرواقى من أن العمل بأوامر الله وإطاعة العقل شىء واحد(٨) .

وقد عنى المتأخرون بجمع محاضراته ومقالاته وأسموها **الآداب** (Moralia) لأن معظمها مواعظ بسيطة لطيفة تبين ما تنطوى عليه الحياة من حكمة ؛ وهى تبحث فى كل شىء ، من الحث على استبقاء كبار السن فى المناصب العامة إلى البحث فى أيهما أسبق الكتكوت أو البيضة . وأفلوطرخس مغرم بمكتبته ، ولكنه يقر بأن الصحة الجيدة خير من الكتب القيمة :

« من الناس من يدفعهم الشره فيهرعون إلى الحانات يلتهمون ما فيها كأنهم يستعدون لحصار . . . إن أقل الأطعمة ثمناً هى على الدوام أكثرها نفعاً ... ولما عجز أزدشير ممنون فى أثناء تقهقره السريع عن أن يجد ما يأكله غير خبز الشعير

[illegible]

والتين صاح قائلا : « ما ألذ هذا الذى لم يكن لى من قبل ! » . . . والنبيذ أفيد المشروبات على شريطة أن يكون فى مناسبة سعيدة وأن يمزج بالماء . . ، وأكثر ما يجب أن يخشاه الإنسان هو سوء الهضم الناشئ من أكل اللحوم لأنها تخمد العزيمة فى أول الأمر ، وتترك بعدئذ رواسب ضارة بالجسم ، وخير ما يفعل الإنسان أن يعوّد جسمه عدم الحاجة إلى اللحم بالإضافة إلى غيره من الطعام ؛ ذلك بأن الأرض تخرج كميات موفورة من أشياء كثيرة لا تفيد فى التغذية فحسب ، بل تفيد كذلك راحة ومتعة أما وقد أصبحت العادة طبيعة ثانية غير طبيعية ، فإن تعاطى اللحوم يجب أن يكون . . . دعامة وسنداً لغذائنا ؛ وينبغى لنا أن نأكل غيرها من الأطعمة . . . التى هى أكثر منها موافقة للطبيعة ، وأقل منها كلالة على شعلة التفكير التى توقد من مواد سهلة خفيفة إذا صح هذه التعبير[٩] .

وهو يحذو حذو أفلاطون فى الدعوة إلى تكافؤ الفرص للرجال والنساء على السواء ، ويضرب أمثلة كثيرة للنساء المثقفات فى الأزمنة القديمة (ولقد كان هناك نساء مثقفات فى المحيط الذى يعيش فيه) ، ولكنه ينظر إلى زنى الرجل بنفس السهولة التى ينظر بها إليه الرجل الوثنى فيقول :

« إذا كان الرجل داعراً منهمكا فى ملذاته وزل مع عشيقة أو خادمة ، فلا يصح لزوجته أن تغتاظ لذلك أو تغضب ، بل يجب أن تعتقد أن احترامه لها هو الذى دفعه إلى أن يشرك فى فجوره امرأة غيرها »[١٠] .

لكننا مع هذا إذا فرغنا من قراءة هذه المقاولات الممتعة الساحرة أحسسنا بعد قراءتها ، بأنا كنا فى صحبة رجل رقيق القلب ، طيب فى جوهره ، كامل فى رجولته ، لا يسوءنا قط أن أفكاره عادية . وإن اعتداله لهو الترياق الشافى من الهوى الفكرى الذى يغلب على عصرنا الحاضر ، وإن عقله المتزن ، وفكاهته اللطيفة ، وإيضاحاته الجذابة لتدفعنا إلى القراءة دفعاً لا نقوى على مقاومته حتى فى المواضع المبتذلة منها . وإن الإنسان لترتاح نفسه حين يجد فيلسوفاً أوتى من

الحكمة ما يكفى لإسعاده ، وينصحنا بأن علينا أن نحمد الله على ما فى الحياة من بركات ونعم عادية ، وألا نجعل دوامها سبباً فى قلة ابتهاجنا بها :

« يجب علينا ألا ننسى تلك النعم وأسباب الراحة التى نشترك فيها مع الكثيرين من الناس ، بل يجب . . . أن نبتهج لأننا نعيش ، وأننا أصحاء الأجسام ، وأننا نبصر ضوء الشمس . . . أليس من واجب الرجل الصالح أن يعدّ كل يوم عيداً ؟ . . . ذلك بأن العالم هو أجل المعابد وأجدرها بسيدها . فى هذا المعبد يدخل الإنسان وقت مولده ، ولا تستقبله فيه تماثيل ساكنة من صنع الأيدى ، بل تستقبله مخلوقات أظهرها العقل الإلهى لحواسنا . . . من بينها الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والأنهار التى لا تنفك تصب الماء العذب صباً ، والأرض التى تخرج الطعام . . . وإذ كانت هذه الحياة هى أكمل إعداد لأسمى العبادات الدينية ، فإن علينا أن نكون على الدوام ممتلئين غبطة وبهجة » .

الفصل الثانى

صيف هندى

تتمثل فى أفلوطرخس حركتان قامتا فى عصره أولاهما العودة إلى الدين ؛ وثانيتهما انتهاء النهضة اليونانية فى الآداب والفلسفة . وعمت الحركة الأولى جميع بلاد اليونان ، أما الثانية فكانت مقصورة على أثينة والشرق اليونانى . وازدهرت فى هذه الأثناء ست مدن من مدائن البلوبونيز ، ولكنها لم تمد التفكير اليونانى إلا بالقليل . وهذه المدن هى مدينة باترى Patrae التى ظلت حية منتعشة خلال العصر الرومانى والعصور الوسطى إلى أيامنا هذه بفضل التجارة الغربية وصناعة النسيج النشيطة . ومنها أولمبيا التى أثرت من أموال السياح الوافدين إليها لزيارة تمثال زيوس الذى صنعه فدياس أو لمشاهدة الألعاب الأولمبية . ومن أكثر حوادث التاريخ اليونانية طرافة أن هذه المباريات التى كانت تقام مرة كل أربع سنين ، قد ظلت تقام من عام ٧٧٦ ق . م حتى عام ٣٩٤ م حين منعها ثيودوسيوس Theodosius . كذلك ظل الفلاسفة والمؤرخون يفدون إليها كما كانوا يفدون فى أيام پروذكس وهيرودوت ليخطبوا فى الجماهير المحتشدة لمشاهدة حفلات الألعاب . ويصف ديوكريسستم المؤلفين وهم يقرءون « مؤلفاتهم السخيفة » للمستمعين العابرين والشعراء وهم ينشدون أشعارهم ، والخطباء يملئون الهواء بصخبهم و« السوفسطائيين الكثيرى العدد كأنهم طواويس تزهو بنفسها » ، وقد جاءوا لينفخوا ريحهم على الجماهير (١٢) . وقد برهن ديو كريسستم بقوله هذا على أنه ليس أكثر صمتاً من سائر القادمين . ويصور إپكتتس النظارة وقد غصت بهم المواقف غير المظللة وهم يتصببون عرقا وتلفحهم الشمس أو يغرقهم المطر ، ولكنهم لا يعبئون بهذا ولا ذاك فى غمرة من الضجيج والعجيج التى كان ينتهى بها كل دور فى اللعب

أو شوط فى السباق[١٣]. وظلت الألعاب القديمة النيمية Nemean ، والبرزخية ، والبيثية Pythian ، والأثينية الجامعة تقام باستمرار ، وأضيفت إليها ألعاب جديدة كالألعاب الهلينية الجامعة التى أقامها هدريان ، وكان الكثير منها يشتمل على مباريات فى الشعر أو الخطابة أو الموسيقى . فها هى ذى شخصية من شخصيات لوشيان تسأل : « ألا نستطيع أن نسمع الموسيقى اليونانية القديمة فى الاحتفالات العظيمة ؟ »[١٤] وأدخلت الجالية الرومانية التى استوطنت كورنثة قتال المجالدين فى هذه الألعاب ، وما لبث هذا القتال أن انتشر من كورنثة إلى غيرها من المدن حتى تدنس ملهى ديونيشس نفسه بهذه المذابح . واحتج كثيرون من اليونان — ديوكريسستم ، ولوشيان ، وأفلوطرخس — على هذا التدنيس ، وتقدم ، دمناكس Demonax ، الفيلسوف الكلبى إلى الأثينيين يرجوهم ألا يسمحوا بهذه البدعة قبل أن يهدموا مذابح إلهة الرحمة فى أثينة[١٥] ، ولكن الألعاب الرومانية ظلت تقام فى بلاد اليونان حتى انتشر الدين المسيحى وكانت له السيادة فى تلك البلاد .

وكانت اسپارطة وأرجوس لا تزالان يسرى فيهما دم الحياة إلى حد ما ، وأثرت إپدورس من مال زوارها مرضى الأجسام والنفوس الوافدين إلى ضريح اسكلبيوس . ولم يكد يمضى على كورنثة ، بعد أن أعاد قيصر بناءها ، نصف قرن من الزمان حتى أضحت لحسن موقعها على البرزخ المسمى باسمها أغنى المدن فى بلاد اليونان . وكان يسكنها خليط من الرومان ، واليونان ، والسوريين ، واليهود ، والمصريين انتزع معظمهم من بلادهم ومن أخلاقهم الأولى ، وعرفوا بنزعتهم التجارية والأبيقورية ، وبفسادهم الخلقى . وكان هيكل أفروديتى بنديوس القديم سوقا ذات تجارة رائجة ومركزا للدعارة الكورنثية . ويصف أپوليوس Apuleius حفلة راقصة فخمة شهدها فى كورنثة مثلث فيها محاكمة پاريس و « ظهرت فيها ڤينوس عارية الجسم إلا من شعار رقيق يغطى خصرها النحيل الجميل ، وحتى هذا الشعار كانت الريح تعبث به فتدفعه تارة إلى اليمين وتارة إلى

الشمال »(١٦) . وهكذا لم تغير كورنثة أساليبها منـــذ أيام أسپازيا .

فإذا انتقل الإنسان إلى أنكا عن طريق مجارا بدا الريف فى فقر مدقع اجتمعت فيه عوامل التعرية ، وتقطيع الغابات ، واستنزاف الثروة المعدنية ، إلى الحروب ، والهجرة ، والضرائب الفادحة وقلة النسل ، فأحالته فى عصر السلم الرومانية صحراء مجدبة . ولم يكن فى أتكا كلها إلا اثنتان من المدن ذوات الرخاء : إليسيز التى كانت طقوسها الدينية الخفية تجتذب إليها الجماهير الغنية فى كل عام ، وأثينة المركز التعليمى والثقافى للعالم القديم . وكانت معاهدها ونظمها القديمة — المجلس ، والجمعية ، والأركونية — لا تزال تقوم بعملها ، كما أن رومة قد أعادت إلى مجلس الأريوپجس سلطته الأولى فجعلته مصدر الأحكام القضائية وحصن حقوق الملكية الحصين . وكان الحكام أمثال أنتيخوس الرابع ، وهيرود الأكبر ، وأغسطس ، وهدريان ينافسون أصحاب الثراء أمثال هيرودس أتكس Herodes Atticus فى هباتهم للمدينة ، فأعاد هيرودس بناء الملعب العظيم بالرخام حتى لم يكد يُبقى منه شيئاً فى بنتلكس ، وأقام قاعة للموسيقى فى أسفل الأكروپوليس . وتبرع هدريان بالمال اللازم لإتمام بناء الأولمپيوم Olympieum ، وشاد لزيوس ، وكان وقتئذ على حافة القبر(*) — بيتاً خليقاً به فى عنفوان شبابه .

وفى هذه الأثناء كانت شهرة أثينة الفذة فى الآداب ، والفلسفة ، والتعليم ، وعدم وجود مدن أخرى تنافسها فى هذه الميادين ، قد جذبت إلى مدارسها عدداً جماً من الشبان الأغنياء والطلاب الفقراء المحتاجين ، وكانت جامعتها تضم عشرة كراسى للأساتذة ينفق عليها من مال المدينة أو الإمبراطور ، فضلاً عن جيش جرار من المحاضرين والمدرسين الخصوصيين . وكانت تلقى فيها دروس ومحاضرات فى الأدب ، وفقه اللغة ، والبيان ، والفلسفة ، والرياضيات ، والفلك ، والطب ، والقانون . وكانت تلقى عادة فى مدارس التدريب الرياضى أو دور التمثيل ، وأحياناً

(*) يقصد أن عبادته توشك أن تزول وأن تحل محلها المسيحية . (المترجم)

فى المعابد أو البيوت؛ ولم يكن يراعى فى منهاج هذه المواد بأجمعها ، عدا الخطابة والقانون ، أن يؤهل الطالب لكسب عيشه ، بل كان يهدف بدلا من هذا إلى شحذ ذهنه ، وتقوية إدراكه ، وإمداده بقانون أخلاقى . وقد أثمرت هذه الدراسات ثمارها فأخرجت عدداً كبيراً من ذوى العقول النابهة ، ولكنها أخرجت أيضاً آلافاً من الجدليين الذين لا هم لهم إلا التلاعب بالألفاظ ، والذين حولوا الفلسفة والدين إلى نظريات جدلية لا يعرف لها أول ولا آخر .

وإذ كانت موارد أثينة تعتمد إلى حد كبير على طلابها ، فقد كانت صابرة على نزقهم وطيشهم . كان الطلاب الجدد يوجه إليهم مزاح عملى يسبب الأذى لغيرهم من المواطنين فى بعض الأحيان ؛ وكان طلبة الأساتذة المختلفين يتشيعون لأساتذتهم ، ويهاجم بعضهم بعضاً ، وينشأ من ذلك شغب كثير شبيه بالشغب الذى يحدثه شباب هذه البلاد وتستخدم فيه العصى . وكان بعض الطلبة يحسبون أن فى مقدورهم أن يتعلموا من العشيقات والمقامرين أكثر مما يتعلمون من جميع أساتذة الفلسفة ، ويشير ألسفرون Alciphron إلى أن أولئك النسوة كن ينظرن إلى الأساتذة نظرتهن إلى منافسين لهن بلداء عاجزين(١٧) . غير أنه كثيراً ما كانت تقوم بين الطلاب والأساتذة روابط قوية من الصداقة الطيبة الوفية ، فكان الكثيرون من الأساتذة يدعون الطلاب إلى الطعام ، ويرشدونهم إلى ما يقرءون ، ويعودونهم إذا مرضوا ، ويحرصون على أن يبقى آباؤهم مخدوعين فى مبلغ تقدمهم . وكان معظم المحاضرين يعيشون من الأجور التى يؤديها لهم طلبتهم ، وكان عدد قليل من الأساتذة يتقاضون مرتبات من الدولة ؛ فكان كل واحد من رؤساء المدارس الفلسفية الأربع يتقاضى عشرة آلاف درخمة (٦٠٠٠ ريال أمريكى) فى السنة من الخزانة الإمبراطورية .

ومن هذه الدوافع نشأ عصر « السوفسطائية الثانية » — الذى عاد فيه إلى الظهور الخطيب — الفيلسوف الذى يتنقل من مدينة إلى مدينة كلما دعاه داعى

الكسب ، يلقى الخطب ، ويعلم التلاميذ ، ويترافع فى المحاكم عن المتقاضين ، ويعيش فى بيوت الأغنياء مستشاراً روحيا ، ويكون أحياناً مبعوثاً مكرما لدولة — مدينته . وازدهرت هذه الحركة فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وبخاصة فى العالم اليونانى ، فى خلال الثلاثة القرون الأولى من التاريخ الميلادى ، وقد وصفهم ديو بقوله إن الفلاسفة لم يكونوا وقتئذ يقلون عدداً عن الأساكفة(١٧) . ولم يكن لهؤلاء السوفسطائيين الجدد ، كما لم يكن لإخوانهم الأقدمين ، مبادئ مشتركة بينهم ، وكانوا يصوغون تعاليمهم فى عبارات بليغة ، ويجتذبون إليهم عدداً كبيراً من المستمعين ، ويصلون فى كثير من الأحيان إلى مراكز عالية فى المجتمع . وينالون رضاء الأباطرة ، ويجمعون ثروات طائلة . وكانوا يختلفون عن السوفسطائيين الأقدمين فى أنهم قلما كانوا يتعرضون لشئون الدين أو الأخلاق ؛ بل كان همهم منصرفاً إلى الشكل والأسلوب ، والفن الخطابى والحذق فيه ، أكثر من انصرافه إلى المسائل الكبرى التى زعزعت عقائد العالم ومبادئه الأخلاقية . والحق أن السوفسطائيين الجدد كانوا من الأنصار المتحمسين للدين القديم ، ولقد احتفظ لنا فيلوستراتس Philostratus بتراجم زعماء السوفسطائيين فى ذلك العصر ، وحسبنا أن نضرب مثلا واحداً منهم . كان أدريان Adrian الصورى يدرس البيان فى أثينة وارتقى حتى صار فيها أستاذ البيان للدولة . وكان يبدأ خطبته الافتتاحية بتلك العبارة الدالة على الفخر والكبرياء : « ها قد عادت الآداب مرة أخرى من فينيقة » . وكان يأتى إلى محاضراته راكباً عربة تجرها جياد ذات عدة من الفضة ، وعليه ثياب غالية تتلألأ فيها الجواهر . ولما زار ماركس أورليوس مدينة أثينة أحب أن يمتحن أدريان فطلب إليه أن يرتجل خطبة فى موضوع صعب . واجتاز أدريان هذا الاختبار بنجاح جعل هدريان يخلع عليه كثيراً من أسباب التكريم ، من ذهب ، وفضة ، وبيوت وعبيد . ولما ارتقى أستاذا للبيان فى رومة ، كانت محاضراته جذابة مغرية إلى حد جعل أعضاء مجلس الشيوخ يؤجلون جلساته وجمهور السكان

يتركون دور التمثيل ، ويهرعون إلى سماعها مع أنه كان يلقيها باللغة اليونانية[١٩] . وتلك خطة تكاد توذن بموت الفلسفة ، فقد طغى عليها سيل البيان ، وغادرها التفكير حين تعلمت الكلام .

وكان الطرف الآخر جماعة الكلبيين . ولقد وصفناهم فى غير هذا المكان — وصفنا ثيابهم الممزقة ، وشعرهم الأشعث ، ولحيتهم الكثة ، وجعبتهم وعكازهم ، ونزولهم بالحياة إلى أبسط الأمور ، وإلى الفحش فى بعض الأحيان . وكانوا يعيشون معيشة الرهبان المتسولين ، فى ظل نظام كهنوتى فيه مبتدئون ورؤساء أعلون[٢٠] ، ولا يتزوجون ولا يعملون ، ويسخرون من تقاليد الحضارة ومظاهرها المصطنعة ، ويشهرون بالحكومات كلها على اختلاف أنواعها ، ويرون أنها بأجمعها عديمة النفع ، لا تعدو أن تكون تلصصاً سافراً ، ويستهزئون بالنبوءات ، و « الطقوس الخفية » والأرباب . وكان الناس كلهم يهجونهم ، وخاصة لوشيان ، فقد صب عليهم أقذع هجاء ، ولكن لوشيان نفسه كان يعجب بديموناكس Demonax ، الفيلسوف الكلبى المثقف الذى خرج عن كل ثروته ليعيش فى فقر فلسفى ، والذى وهب حياته الطويلة التى دامت قرناً كاملا (٥٠ — ١٥٠ م) لمساعدة غيره من الناس ، وإزالة الخلاف بين المتباغضين والمدن المتعادية ، حتى لقد عظمته أثينة رغم أنها كانت تسخر من كل شىء . ولما اتهم أمام محكمة أثينة بأنه يرفض تقريب القرابين للآلهة ، برأته المحكمة حين قال إن الآلهة لا حاجة لها بالقرابين ، وإن الدين لينحصر فى الحنو على جميع الخلق ، وكان هذا هو كل ما دافع به عن نفسه .

ولما أن تورطت الجمعية الأثينية فى نزاع حزبى كان ظهوره فيها كافيا لفض النزاع ، ولم يكن منه إلا أن غادرها دون أن ينطق بكلمة واحدة . وكان من عادته فى شيخوخته أن يدخل أى بيت من غير دعوة ، ويُطعم فيه وينام . وكان كل بيت فى أثينة يسعى لأن ينال هذا الشرف[٢١] . ويتحدث لوشيان بعطف

أقل من هذا العطف على پرجرينس Peregrinns الذى جرب المسيحية ثم خرج عليها وانضم إلى جماعة الكلبيين ، وندد برومة ، وحرض بلاد اليونان جميعها على الثورة ، وأدهش المجتمعين فى أولمبيا بأن جمع محرقته بنفسه ، وأوقد فيها النار ، وقفز إليها ، واحترق فى لهيبها (١٦٥م[٢٢]) . وبهذا الاحتقار للثراء وللحياة نفسها كان الكلبيون يمهدون السبيل لرهبان الكنيسة المسيحية .

ولما أنشأ ڤسبازيان ، وهدريان ، وماركس أورليوس كراسى للفلسفة فى أثينة ، أغفلوا الكلبيين والمتشككة ، ولم يعترفوا إلا بمدارس الفكر الأربع : الأكاديمية الأفلاطونية ، واللوقيون الأرسطوطبلية ، والرواقية ، والأبيقورية . وكانت الأكاديمية قد وسعت إيمان أفلاطون وافتخاره بالعقل الإنسانى حتى استحال إلى الشك العام الذى قال به كرنيديز Carneades ، فلما أن مات هذا الفيلسوف المتشكك عادت هذه المدرسة فمالت إلى النزعة الأصلية ، ورجع أنتيخوس العسقلانى الذى كان يعلم شيشرون فى المجمع العلمى (٧٩ ق . م) إلى آراء أفلاطون فى العقل ، والخلود ، والله . وكانت اللوقيون وقتئذ قد قصرت بحوثها على العلوم الطبيعية جرياً على سنة ثيوفراسطس ، أو على كتابة الشروح والتعليقات فى ورع وخشوع على مؤلفات أرسطو . أما مدرسة أبيقور فكانت فى هذا العصر الدينى سائرة فى طريق الاضمحلال ، وقلما كان أحد من الناس يجرؤ على الجهر بعقائدها دون أن يشفع ذلك الجهر بتحفظات دبلوماسية . وكانت ألفاظ أبيقورى ، وكافر ، ومسيحى فى معظم بلاد آسية كلها ألفاظاً مترادفة ، تعبر عن الهلع والدنس[٢٣] .

وقد كانت للفلسفة الرواقية الغلبة على سائر الفلسفات من قبل ذلك الوقت بزمن طويل ، وكان ما اتصفت به صورها الأولى من صرامة وكمال قد خفّت حدته على يدى پانيتيوس وپوسيدونيوس : وكلاهما من مواطنى رودس . فأما پانيتيوس Panaetius فإنه عاد إلى أثينة بعد موت سپيو (١٢٩ ق . م) وأصبح

وقتئذ رئيس الاستوا Stoa ، وعرّف الله بأنه روح مادية أو نَفَس مادى (pneuma) ، يسرى فى الأشياء جميعها ، ويظهر فى النبات فى صورة قوة النماء ، وفى الحيوان على هيئة النفس psyche ، وفى الإنسان على هيئة العقل logos . وقد تطور هذا المذهب الغامض مذهب وحدة الله والكائنات إلى فلسفة أقرب إلى الفلسفة الدينية على أيدى خلفائه ، واقتربت نظرية التأديب الأخلاقى الرواقية من الزهد الكلبى حتى أضحت الكلبية فى القرن الثانى الميلادى وليس بينها وبين الرواقية فارق إلا فى ردائها المهلهل على حد قول أحد الكتاب . ونرى الحركتين كلتيهما تتقدمان نحو المسيحية على أيدى إپكتتس وماركس أورليوس .

الفصل الثالث

إپكتتس

وُلد إپكتتس فى هيراپوليس Hierapolis من أعمال فريجيا عام ٥٠م ، وكانت أمه جارية فكان هو لهذا السبب عبداً . ولم تتح له فرصة للتعلم لأنه صار يتنقل من سيد إلى سيد ، ومن مدينة إلى مدينة ، حتى وجد نفسه مملوكا لإپفروديتس Epaphroditus وهو معتوق ذو سلطة فى بلاط نيرون . وكان ضعيف الجسم أعرج ؛ ولعل سبب ضعفه وعرجه هو وحشية أحد أسياده ، ولكنه عاش السبعين عاما التى يعيشها الرجل العادى . وقد سمح له إپفروديتس أن يستمع إلى محاضرات موسيوس روفس ، ثم حرره فيما بعد . ومما من شك فى إن إپكتتس قد اشتغل معلماً فى رومة ، لأنه كان بين من فروا منها حين نفى دومتيان الفلاسفة . ثم استقر فى نقوپوليس واجتذب إلى محاضراته فيها طلاباً من جميع الأنحاء منهم أريان النيقوميدى الذى أصبح فيما بعد حاكم كپدوكيا . وقد دوّن أريان عبارات إپكتتس ، وأكبر الظن أنه دوّنها بطريقة الاختزال ثم نشرها باسم "Diatribai" أى عبارات « ممسوحة » أو نسخ — وهى التى تذكر الآن بين قوائم أحسن الكتب فى العالم بعنوان أحاديث Discourses(*) وليس هذا الكتاب رسالة ثقيلة مملة بل هى حديث بسيط جيد ، وفكاهة حلوة ، تكشف فى وضوح عن خُلق متواضع حنون ، ولكنه خلق قوى صارم . وكان إپكتتس يستخدم سخريته اللاذعة للاستهزاء بنفسه وبغيره على السواء ، ويسخر فى مرح من أسلوبه الجاف الخالى من التنميق . ولم يشك قط حين سمع دمناكس الأعزب العجوز ينصح الناس بالزواج ، وأراد أن يسخر منه فتقدم

(*) وأصدر أريان فيما بعد كتابا آخر باسم Encheiridion أى « الموجز » لإپكتتس .

إليه يخطب ابنته . وقد برّر عدم زواجه بحجة أن فى تعليم الفلسفة خدمة لا تقل عظمة عن ولادة « طفلين أو ثلاثة أطفال فطس الأنوف » . واتخذ لنفسه فى آخر أيامه زوجة تساعده على العناية بطفل أنجاه من الموت بسبب تعرضه لتقلباب الجو . وذاع صيته فى جميع أنحاء الإمبراطورية فى تلك الأيام ، وكان هدريان يعدّه من بين أصدقائه .

وكان إپكتتس شبيها بسقراط فى هذا وفى نواح أخرى كثيرة ، ولكنه لم يعن بالطبيعة أو بما وراء الطبيعة عناية تحمله على إنشاء نظام فكرى ، بل كان موضوعه الأوحد الذى يشغف به ويوجه إليه كل عنايته هو الحياة لصالحة . ومن أقواله فى هذا المعنى : « ماذا يهمنى من أن تكون الأشياء الموجودة على ظهر الأرض مكونة كلها من ذرات . . . أو من النار والترابّ ؟ أليس يكفينى أن أعرف حق المعرفة ما هو الطيب وما هو الخبيث ؟ »[٢٥] . وليست الفلسفة فى رأيه هى قراءة ما فى الكتب من الحكمة ، بل هى تدريب الإنسان نفسه على اتباع الحكمة . وجوهر المسألة أن يشكل الإنسان حياته وسلوكه بحيث لا تتأثر سعادته بالظروف الخارجية إلا أقل التأثر . وهذا لا يتطلب منه أن يكون موقفه من الحياة موقف النساك ، بل إن « الأبيقوريين ، وأسافل الناس » ملومون لأنهم يحولون بين الناس وبين أداء الخدمات العامة ؛ والرجل الصالح يقوم بنصيبه فى الشئون المدنية ، ولكنه يرضى ، وهو هادئ مطمئن ، بجميع صروف الزمان : من فقر ، وحرمان ، وإذلال ، وألم ، ورق ، وسجن ، وموت . ويعرف كيف « يصبر وينبذ » .

« لا تقل عن شىء ما » « إننى فقدته » بل قل فقط « إننى رددته » : هل مات لك طفل ؟ لقد رُدّ . هل ماتت لك زوجة ؟ لقد أعيدت . « لقد اغتصبت منى مزرعتى » . حسن جداً ، هذه أيضاً قد ردت . وما دام الله وهبك إياها فاعتن بها على أنها ليست لك . . . « أسفى على أننى أعرج ! » أيها العبد !

أتوثّب الكون لأنك فقدت ساقاً حقيرة ؟ ألا يليق بك أن تنزل عنها هبة خالصة للكون كله ؟ . . . وإذا أرغمت على الخروج من بلدى منفيا ، فهل فى مقدور أحد من الناس أن يمنعنى أن أخرج مبتسما هادئا ؟ . . . « سألقيك فى السجن » . إنك لن تسجن إلا جسمى ؛ وسأموت حتما ، فهل يجب إذن أن أموت شاكيا ؟ . . . تلك هى الدروس التى يجب أن تبدئها الفلسفة وتعيدها ، وتدوّنها كل يوم ، وتمارسها . . . ليست منصة الخطابة وليس السجن إلا مكانين ، أحدهما عال والآخر منخفض ، ولكن هدفك الأخلاقى يجب أن يكون واحداً فى كلتا الحالين[٢٧] .

« وفى مقدور العبد أن يكون حر الروح كديجين ، وفى وسع السجين أن يكون حراً كسقراط ، وقد يكون الإمبراطور عبداً كنيرون[٢٨] ؛ وليس الموت نفسه إلا حادثاً عارضاً فى حياة الرجل الصالح ، فى وسعه أن يستعجله إذا تبين أن الشر يرجح كثيراً على الخير[٢٩] . وخليق به على أية حال أن يستقبله فى هدوء ، وأن يرى فيه جزءاً من حكمة الطبيعة المكنونة .

« لو أن سنابل الحب كان لها إحساس ، فهل كانت ترجو ألا تحصد ؟ . . . إنى أحب أن تعلم أنك لو عشت أبد الدهر لكان عيشك هذا نقمة . . . إن السفينة تغرق ، فماذا أفعل إذن ؟ مهما استطعت أن أفعل . . . فسأغرق دون أن أخشى شيئا أو أن أحجم أو أجدف فى حق الله ، بل أعتقد أن من يولد لا بد أن يهلك . ذلك أنى جزء من الكل كما أن الساعة جزء من اليوم . علىّ أن أجىء كما تجىء الساعة ، وأن أنقضى كما تنقضى[٣٠] . . . يجب ألا تعد نفسك أكثر من خيط واحد بين جميع الخيوط التى تتكون منها الثوب[٣١] . . . لا تسع لأن يكون ما يحدث لك يحدث كما تحب ، بل أحب أن يحدث ما حدث كما حدث ، فإن فعلت وجدت الهدوء والطمأنينة »[٣٢]

وكثيراً ما يتحدث إپكتتس عن الطبيعة بوصفها قوة غير ذات شخصية ،

ولكنه فى كثير من الأحيان أيضاً يجعـــل لفكرته عن الطبيعة شخصية ، وذكاء ، وعاطفة حب . وترى الجو الدينى الذى كان يسود عصره يغمر فلسفته ويحيلها تقوى مستسلمة شبيهة بتقوى الإمبراطور الذى قرأ فلسفته وردد صدى أفكاره بعد زمن قليل . فهو يتحدث حديثاً بليغاً رقيقاً عن النظام الفخم الذى يسود الزمان والمكان ، وعما فى الطبيعة من خطط موضوعة ، ولكنه ينتقل من هذا ليقول إن « الله قد خلق بعض الحيوانات لكى يُؤكل ، وبعضها الآخر لكى يعمل فى المزارع ، وبعضها لكى يخرج الجبن »(٣٣) ، وهو يعتقد أن العقل البشرى نفسه أداة عجيبة لا يستطيع أن يوجدها إلا إله خالق ؛ وإننا وقد وجدت لنا عقول لا بد أن نكون فى الواقع أجزاء من العقل العالمى . ولو أننا استطعنا أن نرجع بأنسابنا إلى الإنسان الأول لوجدنا أنه من أبناء الله ؛ فالله إذن أبونا جميعاً بالمعنى الحرفى للفظ الأبوة ، والناس كلهم إخوة(٣٤) .

« لم يحجم من راقب تصريف شئون العالم وفهمها وعرف أن أعظم المجتمعات وأوسعها هو نظام (سستيما Systema أى الوقوف الإجماعى) الخلق والله ، وأن الله هو الذى انبعثت منه الأصول التى نشأت منها جميع الأشياء وخاصة الكائنات العاقلة ، لم يحجم عن أن يسمى نفسه مواطناً عالمياً . . . أو بعبارة أصح . ابن الله ؟ وإذا استطاع إنسان أن يؤمن بهذا المبدإ بقلبه وروحه . . . فأكبر ظنى أنه لن تخالجه قط فكرة دنيئة أو غير شريفة . . . فلا تنس إذن وأنت تأكل ، من أنت الذى يأكل ، ومن هو الذى تغذية ؛ وإذا ضاجعت النساء فاذكر من أنت الذى تفعل هذا . . . إنك تحمل الله معك . . . أنت أيها التعس المسكين ، وإن كنت لاتعرف ! (٣٥)

ويحث إپكتتس طلابه فى فقرة خليقة بأن يكتبها القديس بولس أن يسلموا إرادتهم لله فى ثقة واطمئنان ، وألا يقتصروا على هذا بل يكونوا فضلا عن ذلك رسلا لله بين بنى الإنسان فيقول :

يقول الله : « اذهبوا وكونوا شهداء لى على الناس »[٣٦] . . . وفكروا فى المعنى الذى ينطوى عليه قولكم : « لقد بعثنى الله إلى العالم لأكون جند من جنوده وشاهداً من شهوده ، ولأخبر الناس أن أحزانهم ومخاوفهم عبث وبطلان ، وأن الشر لا يمكن أن يصيب الرجل الطيب ، حيا كان أو ميتاً . والله يبعثنى يوما هنا ويوما هناك ، ويؤدبنى بالفقر وبالسجن لكى أكون شاهداً حقاً له بين الناس . وإذا ما قمت بهذه الرسالة ، فهل يعنينى أى مكان أكون فيه ، أو مَن يكون رفاقى ، أو ماذا يقال عنى أجل ، ألا تكون فطرتى كلها منجذبة نحو الله ، ونحو شرائعه ووصاياه[٣٧]

أما هو نفسه فقد كان غموض الأشياء ولألاؤها يملآنه رهبة وشكراً . وهو يترنم للخالق بتسبيحة وثنية تعد من أروع الفقرات فى تاريخ الأديان :

« أية لغة ترقى إلى الثناء على جميع أعمال العناية الإلهية ؟ . . . أفما كان خليقاً بنا ، لو كانت لنا عقول ، أن نصرف وقتنا كله فى التغنى بمجد الإله والتسبيح بحمده ، والتحدث بنعمه ؟ أليس من واجبنا ونحن نحفر الأرض ونفلحها ، ونأكل من ثمارها ، أن تلهج ألسنتنا بالثناء عليه ؟ — وماذا بعد هذا ؟ — أما وقد أصبحت كثرتكم الغالبة عمياء ، أفلا يجب أن يكون هناك إنسان يؤدى هذا الواجب بدلا منكم ، وينوب عنكم جميعاً فى التغنى بمدح الله ؟ »[٣٨] .

إنا لنجد فى هذه الفقرات تشابها عجيباً بينها وبين كثير من أفكار المسيحية الأولى ، وإن كنا لا نرى فيها كلمة واحدة عن الخلود ، وإن كان فى وسعنا أن نرجع بها جميعا إلى عقائد الرواقيين والكلبيين . والحق أن إبكتتس ليتقدم أحيانا على المسيحية ؛ يتقدم عليها فى تنديده بالاسترقاق ، وفى وجوب تحريم عقوبة الإعدام ، وفى مناداته بأن يعامل المجرمون على أنهم مرضى يحتاجون إلى العلاج[٣٩] . وهو يدعو الناس إلى أن يحاسبوا ضميرهم فى كل يوم من

حياتهم[٤٠] ، ويضع لهم قاعدة من نوع القواعد الذهبية : « لا تكن سبباً فى أن يتعذب الناس بما لا تحب أن تتعذب به أنت »[٤١] ، ويضيف إلى ذلك قوله : « إذا قيل لك إن إنسانا يتحدث عنك حديث السوء ، فلا تدافع عن نفسك بل قل : إنه لو عرف سائر عيوبى لما ذكر هذه وحدها »[٤٢] . وهو ينصح الناس بأن يجزوا الإساءة بالإحسان ، « وألا يردوا الشتم إذا شُتموا ! »[٤٤] ، وأن يصوموا من حين إلى حين ، وأن « يمتنعوا عما يشتهون »[٤٥] . وتراه أحيانا يتحدث عن الجسم باحتقار مزر كالذى يتحدث به عنه الناسك الذى لم يتطهر بعد من ذنوبه : « إن الجسم أقذر الأشياء جميعا وأخبثها . . . ومن أغرب الأشياء أن نحب هذا الشىء ونؤدى له هذه الخدمات العجيبة فى كل يوم . أنا أملأ هذا الكيس ، ثم أفرغه ، فهل ثمة عمل أكثر من هذا مشقة ؟ »[٤٦] .

ومن أقوال إپكتتس فقرات تنطق بتقى أوغسطين وفصاحة نيومن Newman : « تصرّف فىّ يارب كما تشاء ؛ إن عقلى منك وإليك ؛ وأنا مِلك لك . ولست أطلب أن أعنى من شىء ترى أنت أنه خير . اهدنى إلى حيث تريد ، واكسنى بما تشاء من الثياب »[٤٧] ، وهو يأمر أتباعه كما يأمرهم عيسى بألا يهتموا بأمر غد :

« إذا كان الله خالقنا ، وأبانا ، ووليّنا — أفلا يكفى هذا لأن يرد عنا الحزن والخوف ؟ ويتساءل بعض الناس : من أين أُطعم إذا لم يكن عندى ما أُطعمه ؟ ولكن ماذا تقول عن الحيوانات التى يكتفى كل منها بنفسه ، ولا يعدم ما يصلح له من الطعام ، ولا ينقصه ما يوائمه ويتمشى مع طبقته من أساليب الحياة ؟ »

وهل من عجب بعد هذا أن يثنى عليه المسيحيون أمثال القديس يوحنا وكريسستوم وأوغسطين ، وأن يتخذ كتابه « الموجز » بعد تغيير طفيف قاعدة لحياة النساء فى الأديرة ومرشداً لهن ؟[٤٩] . ومن يدرى ، لعل إپكتتس قد قرأ أقوال عيسى فى صورة ما وأنه قد اعتنق المسيحية على غير علم منه .

الفصل الرابع

لوشيان والمتشككة

ومع هذا فقد كان فى هذه المرحلة الأخيرة من مراحل الثقافة الهلنستية متشككة يعيدون إلى الأذهان شكوك بروتجوراس ، وكان فيها لوشيان ، ساخر من العقائد الدينية بوقاحة كوقاحة أرستبس ، وبأسلوب لا يكاد يقل سحراً عن أسلوب أفلاطون . ولم تكن مدرسة بيرو Pyrrho قد ماتت بعد ، وقد أعاد إينسديمس Aenesidemus النسوسى صياغة أقوالها الإنكارية بمدينة الإسكندرية فى القرن الأول الميلادى ، وذلك فى « الأساليب » Tropoi العشرة أو المتناقضات التى تجعل المعرفة مستحيلة(*) . وفى أواخر القرن الثانى صاغ سكستس إمبركس Sextus Empiricus ، وهو رجل لا نعرف له تاريخاً ولا موطناً . فلسفة المتشككة فى شكلها الأخير وضمنها عدة مجلدات هدامة بقيت منها حتى الآن ثلاثة . ويتخذ سكستس العالم كله عدوًّا له ، ويقسم الفلاسفة أجناساً مختلفة ، ويقضى عليهم واحداً

(*) منها (١) أن أعضاء الحس (كالعينين) فى الحيوانات المختلفة ، بل وفى الآدميين المختلفين ، تختلف فى شكلها وتركيبها ، وأن المفروض فيها أنها تنقل لصاحبها صوراً للعالم مختلفة . وأنى لنا أن نعرف أى هذه الصور هو الصحيح ؟ (٢) وأن الحواس لا تنقل إلا جزءاً صغيراً من الجسم المحس كجزء محدد من الألوان ، والأصوات والروائح ؛ وما من شك فى أن الصورة الذهنية التى تتكون لدينا عن هذا الجسم صورة جزئية غير موثوق بصحتها (٣) وأن هذه الحواس قد تتعارض إحداها مع حاسة أخرى (٤) وأن الجسم المحس يتلون ، وقد يتلون خطأ ، بحالتنا الجسمية والعقلية : حالة اليقظة أو النوم ، والشباب أو الشيخوخة ، والحركة أو السكون ، والجوع أو الشبع ، والكره أو الحب ، (٦) وأن مظهر الشىء المحس يختلف باختلاف حالة البيئة التى تحيط به — من ضوء ، وهواء ، وبرد ، وحر ، ورطوبة الخ ، فأى مظاهره هو الصحيح ؟ (٨) وأن لاشىء يمكن معرفته بنفسه أو معرفته معرفة مطلقة ، فهو لا يعرف إلا بصلته بشىء آخر أى بوصفه جزءاً من كل (١٠) وأن عقائد الفرد موقوفة على العادات ، والدين ، والنظم ، والقوانين التى نشأ فيها ، وما من فرد يستطيع أن يفكر تفكيراً موضوعياً .

بعد واحد ، ويكتب بالقوة الخليقة بالجلادين ، وبالترتيب الحسن والوضوح اللذين تمتاز بهما الفلسفة القديمة ، ولا يخلو أسلوبه من الفكاهة الساخرة ومن فتات من المنطق الكثيب .

ويقول سكستس إن كل حجة يمكن معارضتها بحجة مساوية لها ، ومن أجل هذا لن تجد فى آخر الأمر شيئاً لا ضرورة له أكثر من التعليل . والاستدلال لا يوثق به إلا إذا قام على أساس الاستقراء الكامل ؛ ولكن الاستقراء الكامل مستحيل ، لأنا لا نستطيع أن نتبين متى يظهر أمامنا « مثل سلبى »[٥١] . وليست « العلة » إلا سابقة منتظمة (كما يكرر هيوم Hume) ، والمعرفة كلها نسبية[٥٢] . كذلك لا يوجد خير أو شر موضوعى ، فالمبادئ الأخلاقية تختلف باختلاف البلاد[٥٣] ، وللفضيلة فى كل جيل تعريف يختلف عن تعريفها فى كل جيل آخر . وإنك لتجد فى أقوال هذا الفيلسوف جميع الحجج التى أدلى بها فى القرن التاسع عشر عن إمكان معرفة وجود الله أو عدم وجوده . كما تجد فيها جميع الأقوال المتعارضة بين قدرته العليا الخيرة والآلام الدنيوية[٥٤] . ولكن سكتس أكمل لأدرية من اللاأدريين ، لأنه يؤكد أننا لا نستطيع أن نعرف أننا لا نعرف . ويقول إن اللاأدرية عقيدة[٥٥] ، ولكنه يواسينا بقوله إننا لسنا فى حاجة إلى الحقيقة المؤكدة ، وإن فى الترجيح ما يفى بجميع أغراضنا العملية ، وإن تعليق الحكم فى المسائل الفلسفية بدل إزعاج العقل به يهبه الهدوء الناشئ عن عدم الاهتمام (Atarasia)[٥٦] ، وإذ لم يكن ثمة شىء مؤكد فلنتقبل عرف الزمان والمكان اللذين نعيش فيهما وعقائدهما ، ولنعبد أربابنا القدامى متواضعين[٥٧] .

ولو أن لوشيان قد أوتى من الحمق ما جعله يقيد عقله بالانتماء إلى طائفة خاصة من الفلاسفة لكان من طائفة المتشككة . وكان يكتب الفلسفة كما يكتبها ڤلتير الذى يشبهه فى كل شىء إلا فى عطف ڤلتير وحنانه ، يكتبها بأسلوب بلغ من

الإشراق والوضوح حداً لا يظن معه إنسان أنه يكتب الفلسفة . وكان مولده فى سموساتا Samosata من أعمال كمجينى Commagene البعيدة ، وكأنه قد ولد فى هذا المكان بالذات ليدلنا على مدى انتشار الهلنستية . وقد قال عن نفسه : « أنا سورى من بلاد الفرات » . وكانت لغته الأصلية هى السريانية ، وأكبر الظن أن الدم الذى كان يجرى فى عروقه هو الدم السامى(٥٨) . ثم ارسل ليتمرن على النحت عند مثال ، ولكنه ترك النحت وأخذ يدرس البلاغة ؛ وبعد أن أقام فى أنطاكية يمارس صناعة المحاماة شرع يتجول فى الطرقات كما يفعـــل « العالم المستقل » ، يكسب عيشه بإلقاء المحاضرات ، وخاصة فى رومة وغالة ؛ ثم ألقى عصا التسيار فى أثينة (عام ١٦٥ م) ، وأنجاه ماركس أورليوس الورع المتسامح من الفقر فى آخر أيامه ، وعين المتشكك غير المحترم فى منصب رسمى فى مصر ، حيث مات فى تاريخ غير معروف .

وقد أبقت الأيام على ستة وسبعين كتاباً من كتب لوشيان الصغيرة ، وكثير منها لا يقل جدة ومناسبة لأحوال هذا العصر عما كانت عليه حين كان يقرؤها على أصدقائه ومستمعيه قبل ثمانية عشر قرناً من الزمان ؛ وقد أخذ يجرب أفانين مختلفة من الكتابة حتى عثر أخيراً على أسلوب الحوار الممتع الظريف . وقد بلغ كتابه *محاورات الحظيات* من التحرر درجة جعلت له كثيرين من القراء ، ولكنه كان فى كتبه على الأقل أكثر انهماكا الآلهة منه فى الحظيات ؛ وهو لا يفرغ قط من الإساءة إليهن . ويقول فى كتابه هذا على لسان منيس Menippus : « كنت وأنا غلام أستمع إلى قصص هومر وهزيود عن الآلهة — الآلهة الزانين ، الآلهة الجشعين النهابين ، الآلهة العنيفين المتنازعين ، مرتكبى الفحشاء مع المحارم ؛ ولم أكن أجد فى هذا كله مأخذاً ، بل إنى فى واقع الأمر وجدت فيه متعة عظيمة ؛ ولكنى حين بلغت سن الرشد وجدت الشرائع تناقض أقوال الشعراء مناقضة تامة ، فتحرم الزنى والسلب والنهب » ؛

وتحيّر منيبس فذهب إلى الفلاسفة يستوضحهم الأمور ، ولكنهم كانوا مشغولين بأنفسهم يحاول كل منهم أن يفند حجج غيره ، فلم يزيدوه إلا حيرة واضطرابا ، ولم ير بداً من أن يصنع له جناحين ، ويطير بهما إلى السماء ، ويفحص عن الأمر بنفسه . واستقبله زيوس أحسن استقبال ، وأكرم وفادته ، وسمح له أن يراقب مجرى الأمور من فوق أولمپس . وكان زيوس نفسه يستمع إلى الصلوات وهى تأتى إليه من « صف من الفتحات لها أغطية كأغطية الآبار . . . وكان من بين الخلق الذين يعملون فى البحار رجل يطلب ريحاً شمالية وآخر يطلب ريحاً جنوبية . وكان الزارع يدعوه ليرسل إليه المطر ، والقصار يدعوه أن يرسل إليه الشمس . . . وخيل إلى الرجل أن زيوس قد تحير فى أمره ، لا يعرف أى دعاء يستجيب له ، فامتنع عن الحكم امتناع العلماء الحقيقيين ، وأظهر من التريث والاتزان ما هو خليق بپيرو نفسه »(٥٩) . ثم يرفض الإله بعض المطالب ، ويستجيب لبعضها الآخر ، ثم ينظم طقس اليوم : فيرسل المطر إلى سكوذيا ، والثلج إلى بلاد اليونان ، والعواصف إلى البحر الأدرياوى ، و « يصرخ صرخة تبعث بعشرين مكيالا من البرد إلى كپدوكيا » . ويغضب زيوس من الآلهة السمجة الغريبة التى تسللت إلى مجمع آلهته ؛ فيصدر أمراً يقول فيه إن جبل أولمپس قد ازدحم بالآلهة الأجنبية المتعددة الأجناس حتى ارتفع ثمن الرحيق الذى نشربه ، وأخرجت منه الآلهة القديمة ، التى هى دون غيرها الآلهة الحقة ؛ ولهذا فإن لجنة من سبعة ستتشكل لتنظر فى مطالب الآلهة .

وفى كتاب *التحقيق مع زيوس* يسأله فيلسوف أبيقورى : هل الآلهة هى الأخرى خاضعة للأقدار ؟ فيجيب چوف الظريف بقوله : نعم . فسأله الفيلسوف : « ولم إذن يقرب الآدميون لك القرابين ؟ . وإذا كان القدر هو المسيطر على الآدميين والأرباب ، فلم نكون مسئولين عن أعمالنا ؟ » ، فيرد عليه زيوس بقوله : « يتبين لى أنك كنت مع تلك الجماعة اللعينة جماعة

«السوفسطائيين»[٦٠] ؛ وفى *زيوس تراجودس* Zeus Tragoedus ترى الإله مكتئبا ساخطا لأنه يرى جمعا محتشداً فى أثينة يستمع إلى داميس Damis الأبيقورى ينكر وجود الآلهة واهتمامها بالخلق ، بينا يؤكد ذلك تمكليز Temocles الرواقى . ثم ينهزم تمكليز ويفر من الميدان ، ويبأس زيوس من مستقبله ، ولكن هرمس يواسيه بقوله : « لا يزال فى الأرض كثيرون من المؤمنين ، هم الكثرة الغالبة من اليونان ، أواسط الشعب وسفلته ، والبرابرة على بكرة أبيهم »[٦١] . ولم يتهم لوشيان بالكفر لقوله هذا ، وفى ذلك دليل إما على روح التسامح التى كانت تسود ذلك العصر وإما على قرب زوال الآلهة اليونانية من الوجود .

وكان لوشيان يتشكك فى قيمة البلاغة والفلسفة تشككه فى الدين القديم . ففى إحدى *محاورات الموتى* يأمر كارون Charon أحد البلغاء ، وهو ينقله إلى الدار الآخرة ، « أن تثير ما بلغك من طول الجمل الذى لا آخر له ، ومن الطباق والمقابلة والعبارات المتوازنة » — وإلا غرق القارب حتما[٦٢] . وفى *هرموتمس* Hermotimus ترى طالبا يبدأ دراسة الفلسفة متحمسا لها راجيا أن يستعيض بها بعض الاستعاضة عن الإيمان ، ولكنه يصطدم بما يتصف به المعلمون المتنافسون من غرور وشره ، ويتركه هؤلاء المعلمون عاريا ذهنيا وخلقيا ، لأن كل فريق منهم يقضى وقته فى دحض حجج الفريق الآخر ، ولهذا « سأبتعد عن الفيلسوف كما أبتعد عن الكلب » على حد قوله فى ختام حديثه[٦٣] . ويعرّف لوشيان نفسه الفلسفة بأنها محاولة « للوصول إلى مرتفع تتطلع منه إلى جميع الجهات »[٦٤] . وتبدو له الحياة من هذا المرتفع كأنها خليط مهوش سخيف ، أو جوقة مضطربة مختلة النظام ، يتحرك فيها الراقصون ويصرخون كل كما يريد حتى يطردهم رئيس الفرقة من فوق المسرح واحداً بعد واحد[٦٥] . ويصوّر

فى « كارون » منظر البشر ، كما تراهم عين فوق عين الآدميين من قمة سماوية عالية ، صورة حالكة السواد : صورة خلائق يفلحون الأرض ، ويكدحون ، ويتنازعون ، ويتقاضون فى المحاكم ، ويرابون ، ويغشّون ويُغشّون ، ويحرون وراء الذهب أو اللذة . وفوق رؤوسهم سحابة من الآمال والمخاوف ، والحمق ، والكره ، ومن فوق هذه كلها تعتزل الأقدار خيط الحياة لكل ذرة بشرية ؛ فإنسان يرتفع من بين جمهرة الناس ثم يسقط إلى الحضيض ، وكل إنسان يسحبه بدوره رسول من رسل الموت . ويبصر كارون جيشين يقتتلان فى أرض البلوبونيز ، فيعلق على قتالهم بقوله : « ما أشد حمق هؤلاء ! إن كلا منهم لا يعرف أنه وإن كسب البلوبونيز وحده لن يكون له آخر الأمر إلا قدم واحدة من الأرض »(٦٦) . ولوشيان لا يحابى أحداً شأنه فى هذا شأن الطبيعة نفسها ، فهو يهجو الأغنياء لشرههم ، والفقراء لحسدهم ، والفلاسفة لشراكهم ، والآلهة لعدم وجودهم . ويختم حديثه فى آخر الأمر بما يختم به ڤلتير حديثه وهو أنه ينبغى للإنسان أن يزرع حديقته . فمنبس Menippus يجد تيرسياس Teiesias فى الدار السفلى ويسأله : ما خير أنواع الحياة ؟ فيجيبه النبى الشيخ بقوله :

إن حياة الرجل العادى خير أنواع الحياة ، ومن اختارها كان أكثر الناس فطنة ؛ وإياك وسخف المجادلات فيما وراء الطبيعة والبحث فى أصول الأشياء وغاياتها ؛ ولا تحسبن هذا المنطق كله إلا هراء فى هراء ، ولا تسع إلا لغاية واحدة وهى كيف تعمل ما تجده يدك لتعمله ؛ وسر فى طريقك دون أن تنفعل قط وعلى فمك ابتسامة على الدوام(٦٧) .

وقصارى القول أن التفكير اليونانى فى القرنين الأولين من التاريخ الميلادى تطغى عليه النزعة الدينية على الرغم من لوشيان وآرائه . لقد خسر الناس قبل ذلك العهد إيمانهم وعمدوا إلى المنطق ؛ أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فقد كانوا يخسرون المنطق ويعودون سراعاً إلى الإيمان . ذلك أن الفلسفة اليونانية

كانت قد أتمت دورتها مبتدئة باللاهوت البدائى ، ثم انتقلت منه إلى تشكك السوفسطائيين الأولين ، ثم إلى كُفر دمقريطس ، فمداهنة أفلاطون ومحاولته التوفيق بين النزعتين ، فنزعة أرسطو الطبيعية ، فعقيدة وحدة الله والكون التى كانت تنادى بها الاستوا ، فالعودة إلى فلسفة التصوف والاستسلام والتقوى . أما المجمع العلمى فقد انتقل من أساطير مؤسسة النفعية عن طريق تشكك كرنيديز Carneedes إلى خشوع أفلوطرخس القائم على العلم . ولا يلبث أن يبلغ الذروة فى رؤى بلوتنس السماوية . لقد نسى الناس كشوف فيثاغورس العلمية العظيمة ، ولكن فكرته عن التجسد بدأت وقتئذ تحيا حياة جديدة ، فكان الفيثاغوريون الجدد ينقبون فيما تنطوى عليه الأعداد من أسرار خفية ، ولا ينقطعون يوماً واحداً عن اختبار الضمير الإنسانى ، ويدعون الله أن ينتقلوا بعد أقصر فترة مستطاعة من التجسد إلى الاتحاد المبارك مع الله بعد أن يمروا بالمطهر — إن كان لا بد لهم أن يمروا به[٦٨] . وكانت الرواقية تبعد شيئاً فشيئاً عن أن تكون فلسفة الأشراف المفتخرة المستهزئة ، وقد وجدت آخر المعبرين عنها وأفصحهم لساناً فى عبد من العبيد . وكان إيمانها باللهيب الذى سوف يحرق العالم آخر الدهر ، ونبذها كل ملاذ الجسد ، واستسلامها فى خضوع وذلة إلى إرادة الله الخفية ، كان هذا كله يمهد السبيل إلى اللاهوت المسيحى والمبادئ الخلقية المسيحية . وملاك القول أن المزاج الشرقى كان وقتئذ يستحوذ على القلعة الأوربية .